

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٦) 1442/5/17 هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ ضَلَالَ الخَلْقِ بِكُلِّ صُورِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَبِكُلِّ مَظَاهِرِهِ وَأَشْكَالِهِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْأَفْكَارِ وَالتَّصَوُّرَاتِ، أَوْ الْأَخْلَاقِ وَالتَّسْلُوكِيَّاتِ، أَوْ الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ، يَعُودُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَى سَبَبَيْنِ رَئِيسِيَّيْنِ:

الأوَّل: الجَهْلُ أَوْ العَمَى.

الثَّانِي: الظُّلْمُ أَوْ الهَوَى.

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٦). قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي: «اقتضاء الصراط المستقيم»: الجَهْلُ وَالتَّظْلُمُ هُمَا أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ مَلِيءٌ بِالمُكَدَّرَاتِ وَالمُنْغَصَّاتِ وَالمَصَاعِبِ وَالمَشَاقِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالمَوْفِقُ تَتَحَوَّلُ مِحْنَتُهُ مَنَحَةً، وَبِلَيْتِهِ عَطِيَّةٌ، فَهُوَ مُوقِنٌ بِنَصْرِ اللهِ وَتَأْيِيدِهِ، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ»، عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بَعِزٌّ عَزِيزٌ أَوْ بَدُلٌ ذَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ». وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: «قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالتَّشَرُّفُ وَالعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالتَّصْغَارُ وَالتَّجْزِئَةُ».

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ ضِعْفَ الْبَصِيرَةِ يَظُنُّونَ أَنَّ النَّجَاحَ فِي كَثْرَةِ الثَّرَوَاتِ وَالْأَمْوَالِ، وَإِنْ لَمْ يُبَالُوا مِنْ أَيِّ سَبِيلٍ اِكْتَسَبُوهَا، وَلَا فِي أَيِّ سَبِيلٍ أَنْفَقُوهَا، وَإِنْ لَمْ يُؤَدُّوا حَقَّ اللَّهِ فِيهَا، كَمَا وَقَعَ لِقَارُونَ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ: إِنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَجَمَّلَ بِأَهْرٍ، مِنْ مَرَائِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدْمِهِ وَحَشَمِهِ، فَلَمَّا رَأَهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَيَمِيلُ إِلَى زُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلُ الَّذِي أُعْطِيَ، قَالُوا: «يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»، أَيُّ: ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ قَالُوا لَهُمْ: «وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا». أَيُّ: جَزَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» اهـ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ وُضُوحَ الْهَدَفِ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ النَّجَاحِ، فَالنَّجَاحُ: تَحْقِيقُ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ الْمَرْءُ، فَمَنْ لَمْ يُحَدِّدْ هَدَفَهُ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهِ؟! لَقَدْ كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ يَذْمُونَ الرَّجُلَ الَّذِي يُمْضِي حَيَاتَهُ سَبَهْلًا بِلَا هَدَفٍ وَلَا غَايَةٍ، أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الزُّهْدِ الْكَبِيرِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنِّي لَا أَبْغِضُ الرَّجُلَ أَرَاهُ فَارِغًا، لَا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَلَا فِي أَمْرِ آخِرَتِهِ». وَأَخْرَجَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي: «صِفَةِ الصَّفْوَةِ»، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضَّجَرَ، فَإِنَّهُمَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ، إِنَّكَ إِنْ كَسَلْتَ لَمْ تُؤَدِّ حَقًّا، وَإِنْ ضَجَرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى حَقٍّ. اهـ.

إِنَّ الْعَشَوَائِيَّةَ وَالْهَمَلَ وَالْإِهْمَالَ فِي حَيَاةِ بَعْضِ الشَّبَابِ مَقْتَلَةٌ أَيْ مَقْتَلَةٌ؟ فَالشَّبَابُ الَّذِي يَعِيشُ بِلَا هَدَفٍ مَتَى يُتَبَّجُ خَيْرًا، وَمَتَى يَبْنِي مُسْتَقْبَلًا؟ لَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَرْيَمَ بَعْدَ وَضْعِهَا لَوْلَدِهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ

فِي نَفَاسِهَا، مُجْهَدَةٌ مُتَعَبَةٌ، تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يُطْعِمُهَا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهَا الرِّزْقَ دُونَ سَبَبٍ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا التَّرِيبَةُ عَلَى مُوَاجَهَةِ الصَّعَابِ، فَأَمَرَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهَزَيْتَنِكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝ فُكِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾. وَمَا عَسَى قُوَّةُ مَرِيَمَ الْخَائِرَةُ بَعْدَ الْوَضْعِ أَنْ تَهْزَأَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعَاتِيَةِ، هَلْ يَسْتَطِيعُ رَجُلٌ بِكَامِلِ قُوَّتِهِ أَنْ يَهْزَأَ شَجَرَةَ النَّخْلِ لِتُسَاقِطَ عَلَيْهِ ثِمَارَهَا بِذَلِكَ الْجَذْعِ الْقَوِيِّ الرَّاسِخِ فِي الْأَرْضِ، لَكِنْ هَذَا هُوَ مَنْهَجُ اللَّهِ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ.

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ تَرَبَّى شَبَابُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى تَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ فِي سِنِّ مُبَكَّرَةٍ، وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَطُولُ الْمَقَامُ بِذِكْرِهَا، وَلَكِنْ لِنَأْخُذَ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَمْثَلَةٍ فَقَطُّ.

الْأَوَّلُ: فَتَى صَغِيرٌ يَتَعَلَّمُ لُغَةَ قَوْمٍ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا.

إِنَّهُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ خَارِجَةَ ابْنِ زَيْدٍ، أَنَّ أَبَاهُ زَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، قَالَ زَيْدٌ: دُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْجَبَ بِي، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي». قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ».

الثَّانِي: فَتَى صَغِيرٌ يُثْبِتُ عَلَى الْحَقِّ ثَبَاتَ الْجِبَالِ.

إِنَّهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أَسْلَمَ مَعَ الْأَوَّلِينَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ، وَكَتَمَ إِسْلَامَهُ خَوْفًا مِنْ أُمِّهِ وَقَوْمِهِ، وَلَمَّا كَشَفُوا أَمْرَهُ أَخَذُوهُ، فَحَبَسُوهُ وَعَذَّبُوهُ، فَلَمْ يَزَلْ مَحْبُوسًا مُعَذَّبًا، حَتَّى خَرَجَ إِلَى أَرْضِ

الْحَبْشَةَ فِي الْهَجْرَةِ الْأُولَى، ثُمَّ رَجَعَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ حِينَ رَجَعُوا، وَقُتِلَ ﷺ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا يُكْفِنُونَهُ فِيهِ سِوَى بُرْدَةٍ، فَكَانُوا إِذَا وَضَعُوهَا عَلَى رَأْسِهِ، خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا وَضَعُوهَا عَلَى رِجْلَيْهِ، خَرَجَ رَأْسُهُ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا، عَنْ خَبَابِ ﷺ قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَبْتَعِي وَجْهَ اللَّهِ، فَوَجِبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى، أَوْ ذَهَبَ، لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُضَعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَتْرِكْ إِلَّا نَمْرَةً، كُنَّا إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلَاهُ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الْإِذْخِرَ» أَوْ قَالَ: «الْقُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ» وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرْتُهُ فَهُوَ يَهْدِيهَا. وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَصَحَّحَهُ، عَنْ مُحَمَّدِ الْعَبْدَرِيِّ قَالَ: كَانَ مُضَعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فَتَى مَكَّةَ شَبَابًا وَجَمَالًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ يُحِبَّانِيهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَكْسُوهُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الثِّيَابِ وَأَرْقَهُ، وَكَانَ أَعْطَرَ أَهْلِ مَكَّةَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُهُ وَيَقُولُ: «مَا رَأَيْتُ بِمَكَّةَ أَحْسَنَ لِمَةً، وَلَا أَرْقَ حُلَّةً، وَلَا أَنْعَمَ نِعْمَةً مِنْ مُضَعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ».

الثَّالِثُ: فَتَى صَغِيرٌ، مَرَجِعٌ لِكِبَارِ الصَّحَابَةِ إِذَا اخْتَلَفُوا.

إِنَّهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ، أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَابْنُ حِبَّانٍ فِي «صَحِيحِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّعْلِيقَاتِ الْحَسَانِ»، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَإِذَا فَتَى بَرَّاقُ الشَّانِيَا، وَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، قَالَ: فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَأَخَذَ بِحَبُوبَةِ رِدَائِي، فَجَذَبَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ».